

ابراهيم اصلان البحث عن عنوان

بعد منتصف النهار بقليل ، كان هناك رجل نحيل يسير في خطوات مستقيمة على طوار الشارع الطويل الذي يقسم المدينة الى قسمين . وكان الطوار مزدحما بالنساء والرجال الذين كانوا يتقدمون في كلا الاتجاهين . وبدا ضوء الشمس منعكسا على سقوف العربات التي كانت صفوفها تدرج فوق الاسفلت في بطء شديد .

وكان ذلك الرجل النحيل يرتدي حلة رمادية خفيفة ، وفي يده جريدة مطوية ، ومقدمة رأسه خالية من الشعر . ولم يكن قد مضى عليه وقت قصير وهو يسير في ذلك الطريق الطويل ، عندما توقف بجوار سلة مهملات معدنية معلقة على احد الاعمدة العالية ، وراح يتابع الآدمي الكسيح الذي كان قد اعترض قدميه وهو يزحف في طريقه الى الجزء الداخلي من الطوار ، حيث اسند ظهره تحت احدى واجهات العرض الزجاجية ، ومد يده ، وبدأ يتطلع الى المارة بعيون قلقة .

تأمل الرجل قليلا وهو ما زال واقفا في مكانه . نقل جريدته الى يده اليسرى واخرج باليمنى منديلا . مسح العرق عن وجهه ومقدمة رأسه وزفر في ضعف . وما ان اعاد التمدل الى جيبه وهمّ بالمسير ، حتى عااد وتوقف مرة اخرى ، وزوى ما بين حاجبيه قليلا .

على بعد خطوات قليلة منه ، كان يقف رجل بدين يحدق فيه ، وقد تدلى فكه واتسعت عيناه عن آخرهما .

وقف الرجلان في مواجهة بعضها لفترة من الوقت . خلاها كان الرجل النحيل ينقل عينيه بين الرجل البدين واسفلت الطريق . ظل يفعل ذلك الى ان قطع البدين المسافة التي بينها فجأة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة دهشة . قال وهو يكاد ان يلتصق به :

« اهلا وسهلا ! »

تراجع الرجل النحيل خطوة الى الخلف . اصبح بجوار سلة المهملات تماما . تتم وهو يبادله النظر :

« اهلا بك يا افندم » .

قال الرجل البدن في صوت مرتفع :
« الا تذكرني ؟ »

تطلع اليه الرجل النحيل . وضع على وجهه ابتسامة صغيرة وهو يرد :
« والله ، في الحقيقة ، لا اذكر تماما . ولو ان الوجه ليس غريبا عني . »
قال البدن ، وكان يرتدي قميصا وسروالا ويضم الى صدره مجموعة من اللقافات :
« حاول ان تتذكر . انا سيد . سيد البلتاجي » .
مرة اخرى قال الرجل النحيل وحفناه يختلجان :
« في الحقيقة انا آسف . انا آسف فعلا » .
« ألسنت انت ... انت ... » وحرك رأسه في ضيق : « اسمك على لساني . انه على لساني » .

قال الرجل النحيل :
« انا اسمي عارف . عارف السقا » .
رفع الرجل البدن احدى يديه عن كومة اللقافات وقبض على ذراع الرجل النحيل وهزه صائحا :
« عارف السقا . نعم عارف السقا . هذا هو اسمك . تمام . اهلا وسهلا . تصور ، لو انتظرت دقيقة واحدة كنت تذكرته . ولكن كيف لا تذكرني ؟ الا تذكر سيد البلتاجي الذي كان يجلس وراءك في الفصل ؟ وراءك مباشرة » .
« حضرتك كنت زميلي في المدرسة ؟ »
« لا ! » وهمس وهو يربت على كتفه : « يبدو انك كبرت . ذاكرتك اصبحت ضعيفة » .
« انا كنت في مدرسة فاروق » .

ضحك البدن بقوة فانزلت حبات العرق التي كانت معلقة على صدغيه . انزلت فوق رقبتة القصيرة الممتلئة والجزء العاري من صدره . قال :
« مدرسة فاروق ؟ ألم اقل لك ، انت كبرت وضعفت ذاكرتك ؟ » ثم استطرد في لهجة جادة : « ولكن كيف انت ؟ »
ابتسم الرجل النحيل : « لا بأس » .
مد البدن رقبتة . تفرس في وجهه بعناية اكثر :
« ولكن كيف ظهر عليك الكبير هكذا ؟ »
« والله ، الظروف » .
« الظروف ؟ ما هذا الهدوء يا ولد ؟ »

ضحك الرجل النحيل . قال في لهجة مرتبكة :

« هدوء ! اي هدوء ؟ »

« اي هدوء ؟ هدوءك انت ايها الشيطان . يا اشقى تلميذ رأته عيناى » .

« لهذه الدرجة ؟ »

« ياه . اسكت . اسكت . كنت شيطانا حقيقيا . اهلا وسهلا » .

وهنا وقعت احدى اللقافات التي كان البدين يضمها الى صدره . حاول ان ينحني بقامته القصيرة فكاد ان يهبط على ركبتيه . اسرع الرجل النحيل بالتقاطها واعادتها الى مكانها على صدر الآخر ، الذي قال :

« اسمع ، هل تذكر مبروك ؟ »

« مبروك ؟ مبروك من ؟ »

« يا اخي ، الولد الاسمر . الله . الذي كنت تخطف منه الغذاء » .

ضحك : « هل كنت اخطف منه الغذاء ؟ »

« طبعا ! »

« شيء عجيب فعلا . في الحقيقة لا اذكر هذه الحكاية » .

« على اي حال ، الا تذكره ؟ »

هز الرجل النحيل رأسه نفيا . استطرد البدين وهو يتلفت حوله :

« اعتقد انك تذكره . تصور . حدثت له مسألة غريبة جدا » .

« كيف ؟ »

« مسألة في منتهى الغرابة » . وتلفت حوله مرة اخرى ، ثم اشار بذقنه الى اللقافات

التي يحملها : « قلت اشترى بعض الملابس للاولاد . اسمع . تزوجت طبعا » .

« من ؟ »

« انت » .

« لا والله . ابدا » .

صاح البدين : « مستحيل . ما هذا يا عارف ؟ مستحيل جدا » .

« والله ، كانت هناك بعض المشاغل » .

« مشاغل ؟ اي مشاغل يا رجل ؟ اي مشاغل هذه ؟ » وقطب جبينه : « مشاغل

مادية ؟ »

« لا ، ابدا » . وضحك : « مشاغل من نوع آخر » .

« الى الآن ؟ لا بد انها من نوع آخر جدا . لا اتصور ابدا هذه الحكاية . انا مندعش

جدا منها » . ثم صاح : « قل لي ، كيف حال الوالدة ؟ »

« تعيش انت » .

« لا يا شيخ ؟ لا حول ولا قوة الا بالله . اسمع ، اين تعمل الآن ؟ »

« في الحقيقة ... في الحقيقة لا اعمل عملا محدا » .

« هكذا انت . طول عمرك لا تستقر على شيء . ولكن كيف لا تذكر مبروك ؟

الولد الاسمر يا اخي » .

« اعتقد فعلا انه كان هناك ولد اسمر . ولكني اريد ... »

« هذا هو الذي اقصد . هذا هو مبروك . دنيا يا اخي . من يتصور اننا كنا سنفترق

هذه المدة كلها ؟ هيه ... من يتصور ؟ »

قال الرجل النحيل : « فعلا » .

« او من يصدق اننا كنا سنلتقي هكذا ؟ هيه ؟ ولكن اين تسكن الآن ؟ »

« اسكن في العجوزة » .

« وانا في الحلمية الجديدة » . وانفجر ضاحكا : « عندما رأيتك لم اصدق ابدا .

عارف هو صاحب هذا الوجه الجاد ؟ غير معقول . انا مندهش جدا » .

ضحك الرجل النحيل : « لماذا ؟ »

« لماذا ؟ تقولها لي انا ، يا اكبر المهرجين ، تقول هذا الكلام لي انا يا ولد ؟ اسمع ،

اتذكر عندما ذهبنا رحلة الى جنينة الاسماك ؟ »

« جنينة الاسماك ؟ »

« عندما كان معنا ضابط المدرسة ، ورحنا نلعب ونأكل » .

« انت تعلم ان المدة طويلة » .

« طويلة جدا . عندما كنا نلعب فوق الجبلية وقفزت انت وجرحت . كيف لا

تذكر يا اخي ؟ »

« قفزت ! انا ؟ »

« نعم » .

« لماذا ؟ »

« هكذا . كنا نلعب فوق الجبلية وضحكت انت وقفزت » .

« وهل جرحت ؟ »

« طبعا » .

« اين ؟ »

التفت الرجل البدين خلف امرأة كانت تعبر الطريق بطراوة ورداؤها يكشف عن

جزء كبير من ظهرها . قال وهو يغمز بعينه :

« اسمع ، ما رأيك ؟ »

ابتسم الرجل النحيل ولم يرد. قال البدين وهو يشير مرة اخرى بذقنه الى اللفافات التي كان لا يزال يضمها الى صدره :

« قلت اشترى بعض الملابس للاولاد . »

« عندك اولاد ؟ »

« سميرة وعبده ومرسي ، خلاف واحد في الطريق . »

« عال عال . »

« طبعاً . اسمع ، ساعطيك العنوان القزوري . لا بد ان ترى الاولاد يا اخي . »

« ان شاء الله . »

« فكرتني ، هل تذكر مرسي افندي ؟ »

« مرسي افندي ؟ »

« مدرس الحساب يا اخي . ياه . كنت شيطاناً جداً . اهلاً وسهلاً . » قهقه الرجل النحيل . تكونت شبكة دقيقة من التجاعيد عند زاويتي عينيهِ . صاح البدين :

« ضحكك ولعب وقفز وضرب . ياه . » ثم صرخ : « دلقت الخبر مرة في قفا الولد الذي يجلس امامك . »

استسلم الرجلان للضحك . بكل ما يملكان من قوة راحا يقهقهان بجوار سلة المهملات . وكانت ضحكات البدين صاخبة ومتنوعة . اما الرجل الآخر النحيل فقد كان ينتفض ويعض بين الحين والآخر على شفته السفلى وهو مائل الى الامام . صرخ البدين :

« كنت اجلس وراءك مباشرة ، ورأيتك . »

اعتصر الرجل النحيل جريدته ، واغرورقت عيناه :

« هل ، هل رأيتني ؟ »

« نعم . رأيتك وانت تدلق الخبر في قفاه . وشهدت عليك . »

ضرب بيده على كتف البدين :

« هل فعلت ذلك ؟ »

« نعم . شهدت عليك . كنا اولاد . »

« وماذا فعل الضابط ؟ »

« لا بد انه ضربك . »

« هل ضربني ؟ »

« لا اذكر . » ودق الارض بقدمه : « لا بد انك هربت منه . »

كان المارة يرقبونها ويفسحون الطريق من حولها . القى الرجل النحيل بجريدته في

سلة المهملات :

« هل هربت منه ؟ »

« نعم . لا بد انك قفزت من النافذة . كنت شيطانا حقيقيا » .

« لا يمكن . كنا في الدور الاخير » .

« ابدا . كنا في الارضي » .

وضع يديه على كتفي الرجل البدين :

« وماذا فعل الولد ؟ »

« اي ولد ؟ »

« الذي دلقت الحبر في قفاه » .

« لا بد انه بكى . نعم . انه بكى وكان لون وجهه ازرق » .

طوح الرجل النحيل برأسه وقد انتابته نوبة شديدة من السعال :

« هل بكى ؟ »

« بكى . واشتكى لاه » .

« واين هو الآن ؟ »

« لا اعرف . اسمع ، لا بد انه مات » .

قال الرجل النحيل في صوت واهن :

« آه . اتعبتني يا رجل » .

واخرج منديله ، وراح يحفف عينيه . بينما كان البدين يعدل من وضع اللفافات على

صدره ، قال :

« انت كنت شيطانا حقيقيا . ياه . ضحك ولعب و ... »

شق الفضاء صوت فرملة حادة مفاجئة . صرخ البدين : « انظر . احتجزته الاشارة » .

نطق هذه العبارة الاخيرة ، وقفز من على الطوار وهروا الى الاتوبيس الذي كان على

وشك التحرك . استدار الرجل النحيل بكل جسمه . رأى الايدي وهي تعينه على صعود

العربة المزدحة . همس وهو يمد يده :

« العنوان . لم تعطني العنوان » .

فعل ذلك في نفس اللحظة التي تحركت فيها العربة .

وقف وقد تفضن وجهه عن ذي قبل . وقف يتحسس ذقنه باصابعه الطويلة . ازاحه

بعض المارة عن مكانه قليلا ، فالتقت عيناه بعيني الكسيح في نظرة سريعة ملتزمة . على اثرها

هز الرجل النحيل رأسه ، وتراجع الى الوراء في خطوات آلية مثقلة . واسند ظهره الى

سلة المهملات ، وظل يتطلع الى بعيد ، حيث غابت العربة .